الازهر

وعوامل الرجعية فيه

مهما عزى الى الأزهر من فضل على اللغة والدين ، ومهما قيل عنه من العبارات التى يراد بها اظهار المفخرة بالمجد التليد وفضل الآقدمين قبل أن يراد بها التعبير عن الحقيقة المستكنة وراء تلك المعانى الشعرية ، ومهما قلنا عنه ـ صوابا أو غير صواب ـ انه ظل زمنا غير قصير يمثل الروح العلمية فى جو مملوء بالجهالة والغباء ، وينشر على الناس شعاعا يضىء لهم جوانب نفوسهم ، فلا يمكننا أن ننسى انه كان من اكبر العوامل على اظهار الاسلام بغير مظهره الحقيقى بايجاد ذلك النظام الكهنوتى فيه ، ذلك النظام الذى يتنافى مع جوهر الاسلام ونصوصه الجلية الصريحة . وبقى هذا النظام حتى اليوم كأنه جزء من النظم الدينية والتقاليد الصحيحة ، وصار من الثابت فى اذهان الكثير من شيوخ الأزهر ودهماء الناس ان وجود طائفة دينية النزعه والتربية والمظهر الخارجى ، تتبع نظاما طائفيا خاصا ، وتتثقف تثقيفا دينيا محضا لا يشوبه شىء من الثقافات الأخرى ، تتقدم الناس فى أمور دينهم وتظل صاحبة الحل والعقد فى هذا الدين ، وتكون هي المختصة بفهم نصوصه وتوضيح مسائله وتأويل مشكلاته ، والحكم على هذا وذاك بالكفر والالحاد والمروق والفسوق وغير ذلك من الدرجات ! . صار من الثابت أن وجود هذه الطائفة واختصاصها بما اختصت به نفسها جزء من التقاليد الدينية التى يعتبر افكارها ومعارضتها من باب الفسوق والالحاد ! اذ هو انكار لجزء جوهرى من الدين ! !

واكتساب هذه الفكرة صفة القداسة اسبغ على الأزهر هذه الصفة نفسها ، فاصبح هذا المعهد الذى نفخر بانه اقدم معهد علمى ! مكانا قدسيا ! لأنه يخرج لنا هذه الطائفة المقدسة

وكما كانت هذه الفكرة ضلالا فى الدين ووهما لا أساس له ولا أصل يعتمد عليه من نصوصه الكثيرة وتاريخ صدره الأول فقد اصبحت شؤما على الأزهر بصفته كائنا حيا له كل ما للحياة من نواميس تقضى بالسير الى الأمام والتقدم المطرد نحو الغاية المثلى ،

اذ ان هذه الصفة متى لابست أمرا من الأمور أو نظاما من النظم اصبح من العسير تغييره وتعديله لأجل أن يتلاءم مع أوضاع الحياة

وهكذا ترى أن هذه الفكرة الخاطئة وهذا النظام الأخرق اكبر عامل من عوامل الرجعية فى الأزهر ، واهم عنصر من عناصرها المناوئة لنظام الحياة ونواميسها

والدليل حاضر بين ايدينا فان جميع الذين كانوا يعارضون الاستاذ المراغى شيخ الأزهر السابق انما كانوا يعارضونه باسم الدين و بأن هذا النظام الذى يرسمه للدراسة فى الأزهر يجعله معهدا مدنيا لادينيا، فهم كانوا فى الواقع يدافعون عن النظام الكهنوتى الذى يقوم الأزهر عليه بالتهيئة والاعداد ، ونعتقد أن فشل الأستاذ المراغى فى اصلاحاته التى ظل قائما عليها عاما ونصف عام تقريبا لم يكن الا بتاثير هذا النظام الباطل المشئوم والاعتقاد بان الاسلام يقسم اتباعه الى رجال دين ورجال دنيا.

وفى أى نص من النصوص الدينية وجد هذا التقسيم ؟ ليست ثمت ما يمكن أن يعتمد عليه فى وجود نظام كهنوتى كهذا النظام الذى يدافعون عنه ويقيمونه فى وجه كل مصلح يريد ترقية الأزهر بحيث يساير الحياة العصرية

على أن نصوص الاسلام لايقتصر الأمر فيها على عدم وجود مثل هذا النظام بل هى تكاد تنص على ان وجوده مخالف لقاعدة المساواة بين الناس وانه لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى والعمل الصالح. فوجود هيئة دينية تستمد وجودها منه ،وتتميز عن بقية الهيئات الأخرى وتدعى الا شأن لها الا بالدين وحده وان ما عداه من علم وغيره امور مدنية لا تعنيهم(١) وانما تعنى اربابها من الرجال المدنيين ضلال لا وجود له فى الاسلام وليس فيه ما يبرره

وانى لأعجب أشد العجب من هؤلاء الناس الذين يحرمون لبس القبعة لأن فى لبسها تشبهاً باهل الأديان الأخرى ، ثم هم فى الوقت نفسه يقتبسون نظاما دينيا خاصا متبعا فى تلك الأديان ليس له اصل فى دينهم بل يلصقونه به الصاقا و يفترون على الله الكذب وهم يعلمون ، فاذا كان لبس القبعة - وهولا يمس الدين فى قليل ولا

---

(١) ادعى هذا الشيخ عبد الرحمن عليش « أحد افراد هيئة كبار العلماء » فى رده على مذكرة الاستاذ المراغى عن الازهر

كثير - يعتبر عندهم من باب الفسوق والعصيان،فاحر بان يكون الصاق نظام بالاسلام وليس فيه ما يقره من الكفر والالحاد . . . ونعوذ بالله ونستغفره !

ولكن اين شيوخ الأزهر من روح الاسلام وان ادراكها يحتاج الى فطرة سليمة وذوق عربي صاف وقد افسد ذلك عليهم تلك التمحلات الفارغة والتأويلات المصطنعة والعبارات السمجة المستعجمة التى ولعوا بها ايما ولع

ان تلك الروح التى ترمى الى المساواة ووحدة الجماعة الانسانية كانت هى الروح الغالية على الجمعية الاسلامية الأولى، فلسنا نعلم بين افرادها طائفة اختصت نفسها بالدين وحده وأخرى سعت الى الدنيا فقط.ولقد ادرك هذه الحقيقة كثير من علمائنا المتقدمين وحرصوا عليها كل الحرص حتي ان ابن تيمية -ومنزلته فى العلوم الدينية لا يمكن انكارها - انكر بشدة على بعض الفقهاء والمعاصرين له ما يتخذونه من الالبسة الخاصة والاردان الواسعة التى تميزهم عن غيرهم «لما فى ذلك من تفريق الأمة». فليسمع شيوخنا الأجلاء الذين يأبون الا هذا التفريق ويأبون الا أن يتخذوه اداة يحاربون بها كل مصلح. ويأبون الا أن يسموا تلك الأداة بسمة الدين

وادرك هذه الحقيقة أيضا من علمائنا المعاصرين كل باحث فى الاسلام بحثا مجردا،ناظر اليه نظرة بعيدة عن الانخداع بتلك التقاليد المبتدعة ، والرسوم المصطنعة، فترى الاستاذ وجدى - وليس من يستطيع ان ينكر مكانته فى المسائل الدينية وما اليها- يقول « هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادىء الدين الاسلامى من كل وجه ومعارض لأوامره بل ومعطل لأكثرها تعطيلا »

والخلاصة ان النظام الكهنوتى الذى ترعرع فى احضان الأزهر - كما نظن - رغم انف الاسلام ونصوصه الصريحة وروحه الجلية ، يمثل اليوم اكبر عنصر للرجعية وأشد مناوىء للنواميس الطبيعية ، وأقوى عامل على هدم الأزهر بعد أن عمل هذ على تقويته وانمائه

والعامل الآخر الذى يعمل على الرجعية فى الأزهر دائما هو الشيوخ أنفسهم لا بصفتهم ممثلين للهيئة الكنوتية . بل بصفتهم شيوخا أزهريين - وأنت تعلم أن هؤلاء الشيوخ هم قوام الأزهر الوحيد سواء فى الادارة أو فى التدريس

أما كونهم شيوخا فلأن الشيوخ هم أبعد خلق الله عن الرغبة فى التجديد ، وأشدهم تمسكا بالقديم على أى حال كان ، و شيو خ الأ ز هر لا يمكن أن يخرجوا على هذه الطبيعة — خصوصاً وان تر بيتهم العقلية و ثقافتهم العلمية مما يقوى هذه الطبيعة كل التقو ية — فالنظم القديمة والكتب القديمة والدر اسة القديمة هى أصلح ما يمكن ، اذ ليس فى الامكان أبدع منها ! ! ! ذلك أنهم قضوا فى القديم ز هرة شبابهم والشباب أعز شىء عندهم اذ هو الذى يثير فى نفوسهم أجمل الذكر يات وأحلاها ! و كذلك لأنهم يحسون احساساً داخلياً بأن فى التجديد طعنا فى كفاءتهم الشخصية ومقدرتهم العلمية ! ! وليس أشد ايلا ما لهم من هذا بعد أن قضوا فى الدراسة وقراءة الكتب والمطولات سنى شبابهم وأوقات كهولتهم ، فمن الطبيعى اذن أن يكونوا من أجل شيخوختهم هذه أشد عداء التجديد وانصار الرجعى

و عندى أن هذا دليل واضح جدا على نقص تربيتهم العقلية . أو على اتجاهها اتجاها مخالفا ، اذ لو لم تكن كذلك لكان لهم من عقلهم عاصما يعصمهم من الانخداع بالأوهام والخضوع للأحلام

و صفة الأ ز هرية متممة لصفة الشيخوخة فى التكو ين الرجعي ، فكثيرا ما نرى لشيوخ على غاية مايكون من النشاط العقلى والحيو ية الفكرية ثورة على القديم المتهرم مهما تغلغل فى أعماق العقل الباطن ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا أز هر يين فى حياتهم العلمية

على أن اعتبار وجو د حياة علمية للشيو خ الاز هريين ليس الا خطأ أو على سبيل التوسع فى التعبير فان ذلك الذى يتشدقون به ، و يعيشو ن من فضله ، و يشتقون منه وصفا لهم ولقبا يحملونه فى كل مكان ليس علما بالمعنى الذى نفهمه الا تجوزا فقط ، و حتى علم ماور اء الطبيعة الذى يتصل بالدين اتصالا وثيقا لا يعلمون منه الا مجموعة رثة من المعارف التقليدية والاساطير و الخرافات . ومع تقدم هذا العلم ، وتقدم المباحث التى قد تؤدى الى اعتباره من العلوم الرسمية ، فانهم لا يزالون سادرين فى غفلتهم لا يعنيهم من العلم الا العكوف على تلك الكتب التى لا ندرى أعربية هى أم أعجمية أم بين هذه وتلك ؟ ! وماذا فى هذه الكتب ؟ مجموعة من المناقشات الجدلية حول عبارة من العبارات لا تكشف عن حق ولا تهدى الى يقين ، وهذا هو كل العلم فى نظرهم

أما الكون وما فيه من عجائب و بدائع ، و أما متابعة آراء العلماء للوصول الى الحقيقة، فلا يستحق منهم بحثا ولا اطلاعا، ولماذا ؟ هاك جوابهم الصريح كما نطق به احد كبار زعمائهم ، الشيخ عبد الرحمن عليش ،من هيئة كبار العلماء :

«لأن هذه الآراء والمذاهب ان كانت متعلقة بالدين فعلماء الاسلام ليسوا حيارى فى دينهم يبحثون عن مذاهب وآراء تتعلق بهذا الدين ، وان كانت المذاهب والآراء،فى غير الدين فلا شأن لهم به »

هكذا هكذا ! ! فهل نريد دليلا أوضح من هذا على أن وصف العلم الذى يحملونه انما يتصفون به زورا و بهتانا ؟ وهذا اعتراف صريح منهم بأنهم لا يعنيهم علم ولا معرفة حتي و لو كان هذا العلم يمس الاسلام من قرب أو بعد ، وليلصق أنف الاسلام بالرغام ، ولترغم تعاليمه الصريحة ونصوصه الجلية فى الحث على البحث والنظر فى ملكوت السموات والأرض لأن الشيوخ الأزهريين أمناء الدين ! وحملة لواء الاسلام فى العالمين ! لا يعجبهم هذا النوع من العلم ! !

فقوم هذا مبلغ عقليتهم ومقدار فهمهم للحياة واستهتارهم فى الغفلة عما يحيط بهم لا يمكن أبداً الا أن يعيشوا أسراء أوهامهم ، ولا يمكن الا أن يكونوا ضد أى حركة علمية فى الأزهر، لأنهم أعداء العلم بطبيعة جهلهم (والناس أعداء ما جهلوا) وما داموا أعداء العلم الذى هو عدو الجمود، فلا يمكن الا أن يكونوا رجعيين بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها .

هذه أهم عوامل الرجعية فى الأزهر ، كما نرى ، و أخطر العقبات الكأداء التى قامت فى سبيله ولا تزال قائمة ، وهناك غيرها مما لا يبلغ فى الخطورة مبلغها ، وكلها قائم على الأوهام الرثة و بعض الافكار البالية . على أنه ما دامت الافكار قد اتجهت الى اصلاح هذا العهد وتغيير نظامه القائم، فلا بد من أن تتغلب روح الحياة القوية الجبارة على كل ما يكتنفه طريقه حتى يصل الى حيث تقضى نظم الحياة وأوضاع العصر

«الحاجري»